

في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة

نعيش في عصر المرنبة بأساليب همدية

تمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان



كان عهد القيصر اسكندر الأول أصلح عهد لنمو الحركات الروحية السرية في روسيا . ففيه أنشئت في بطرسبرج عدة عاقل سرية لمزاولة الشعائر والتجارب الروحية ، وكان قوام هذه الحركة عدة من سيدات الطبقة العليا مثل البارونة بكشفدن ومدام تاناريوفا . وكان الأكابر والخاصة يشهدون هذه الحفلات الروحية التي اشتقت رسومها وشعائرها من رسوم بعض الجمعيات السرية الوثنية قبل جمعية « أهل الله » وطائفة « سكوبتسي » ذاتها ؛ ووقع القيصر نفسه تحت تأثير البارونة فون كرورز الشهيرة ، وهي سيدة اشتهرت يومئذ بزعمتها الصوفية والروحية وكان لها أكبر الأثر في توجيه سياسة القيصر ، وفي سير الحوادث والشئون ؛ وكان القيصر يعتقد أن مؤازرة هذه الحركات الروحية هي خير وسيلة لمكافحة حركة البناء الحر (الماسونية) والجمعيات السرية الأخرى التي كانت منها طائفة « سكوبتسي » ، ولكن طائفة « سكوبتسي » أو طائفة المجهولين لقيت في عهد اسكندر الأول كما قدمنا فترة صالحة للنمو ، واستطاعت بما خول لها من الحرية والتسامح أن تلم شمنها ، وأن تنشط لإذاعة مبادئها ، واستطاعت بالأخص أن تنفذ إلى الطبقات المستنيرة التي لم تصل إليها من قبل . وغدا سليفانوف في شيخوخته كأنه ملك غير متزوج تنحج إليه الوفود من كل صوب ، وتنهل عليه العطايا والنعج ؛ وكثرت أموال الطائفة ، واشتد نفوذها ، وقدم اليانكي وهو زعيم الطائفة الفكرى إلى كبير الورراء رسالة وصمها عن مبادئ الطائفة ومثلها ، وفيها يعبر إجراء « الجلب » بحرارة ، ويقترح على القيصر مشروعا للإصلاح السياسى تنقل بمقتضاء السلطة الفعلية

إلى طائفة « المجهولين » ، ويثق القيصر رئيس الدولة بالاسم تحت زعامة سليفانوف الروحية ؛ فأنارت هذه المرأة اهتمام القيصر وحكومته بأمر المجهولين مهة أخرى ، وقبض على اليانكي ، وسجن في أحد الأديار . أما سليفانوف فقد ترك حراً نظراً لشيخوخته وضعفه ، بمد أن وعد بالكف عن الدعوة إلى الجلب والاقتصار على العناية الروحية

على أنه لم يف بهذا الوعد ، بل استمرت الدعوة الهمدية وذاعت بين طبقات كثيرة ، واعتنقها عدد من الأغنياء وذوى النفوذ ، وبلغ عدد المجهولين في هذه الفترة آلاف كثيرة . وانتظم في سلك الطائفة يومئذ وصيف سابق للإمبراطور بطرس الثالث (فيدوروقس) يدعى كوبليف ، وأخذ يؤكد أن سليفانوف إنما هو القيصر بطرس بلاسراء ، وأن القيصر اسكندر يعرف جيداً أن جده يعيش بين المجهولين منذ عهد بعيد ؛ وأسبغ سليفانوف على هذا الداعية لقب « النبي » ؛ وهكذا أصبح سليفانوف يزعم أنه المسيح وأنه القيصر مماً

واكتشف حاكم بطرسبرج الكونت ملورادتش أن ابني أخيه قد وقفا في شرك « المجهولين » وأن أحدهما قد كابد بالفعل عملية الجلب فثار سخطا ؛ وضاعت حكومة القيصر ذرعاً بهذا الاجترار المحرم الذى لم تنج منه حتى طبقة النبلاء ، فانتدبت في سنة ١٨٢٠ لجنة سرية للتحقيق . وبعد البحث قر قرارها على اعتقال سليفانوف . وفي الحال اعتقل الداعية ، ولكن في رعاية ورفق ، وألقى في دير سوزدال ؛ فارتاع أنصاره ، وحاولوا السبي لإطلاق سراحه ، ولكن الحكومة كانت هذه المرة جادة ثابتة العزم . ولما رأى الزعماء أن السلطات تبرص بهم وترقب حركاتهم عمدوا إلى أساليب السرية القديمة ، وأخذوا يعملون في الخفاء ، ويتظاهرون بأنهم من أخلص أنصار الكنيسة ، ولكن السلطات قبضت على معظم زعماء الطائفة وزجهم في مختلف الأديار والقلاع . وتوفي سليفانوف في معتقله سنة ١٨٣٢ ؛ ولكن « المؤمنين » يعتقدون إلى اليوم أنه حي ، وأنه سيمود ليتولى السلطات في روسيا ويقم يوم الحساب على نحو ما يعتقد الدروز في عودة الحاكم بأمر الله

وكان يمتاز بنوع من الهيام الصوفي ، فالتف المؤمنون حوله ولقبوه « بالمتقد » وزعموا أنه القيصر بطرس الثالث . وصرح ليسين لأنصاره أنه أعظم من المسيح ، لأنه أتى لأجل المجد وليس كاليسوع لأجل المماناة ، وأسبغ صفة الأنبياء والحواريين على عدة من أنصاره ؛ وذاعت الدعوة الجديدة في رومانيا بسرعة ، وهرع الخصيان من كل صوب لتحية المسيح الجديد ؛ وبعث ليسين رسله ييشرون بقيامه ؛ ثم سار بنفسه في حقل من أنصاره إلى بطرسبرج ليقدم نفسه إلى « القيصر الظاهر » ؛ ولكنه اعتقل مع زملائه في الطريق ؛ وقامت السلطات بتحقيق واسع النطاق في أمر المجبوين استغرق أربعة أعوام ، وقدم إلى محكمة مليتوبول مائة وستة وثلاثون متهماً ، وكان جلهم من الفلاحين ومعظمهم شبان ومنهم شيوخ قلائل وأحداث لم يجاوزوا الخامسة عشرة ؛ وكانت في الواقع أشهر محاكمات هذه الطائفة السرية المدهشة

واعترف بعض « الأنبياء » التهمين أثناء المحاكمة بكثير من أسرار الطائفة وإجراءاتها ورسومها الوثنية ؛ ولكن ليسين « المسيح والقيصر » صرح أمام قضاة بأنه غير مذنب ، وأن المؤمنين قد اختاروه وفقاً للتنبؤات المقدسة ، وأن رسل الطائفة ييشرون بالمسيح الجديد وفقاً لتعاليم الانجيل ، وأنه لا يزال على عقيدته مخلصاً لمبادئه ورسالته ، وأنه منذ شبابه يبحث عن السلام والحقيقة فلم يجدهما إلا لدى طائفة « سكوبتسي » ؛ وألقى آخرون من الدعاة تصريحات روحية وفلسفية ، وأشادوا بتقاء الثل التي بنشدها المجبوين ؛ وقضت المحكمة في النهاية على ليسين بالأشغال الشاقة ستة أعوام ، وقضت على آخرين من الأنبياء بالأشغال الشاقة لمد مختلفة ، وقضت على معظم التهمين الآخرين بالنفي إلى سيبيريا وفي أوائل هذا القرن بعد ثورة سنة ١٩٠٥ سمح « للمجبوين » أن يختاروا مكان إقامتهم ، فهرع كثير منهم إلى روسيا ؛ وقدر عدد المنتسبين إلى الطائفة يومئذ في روسيا بخمسة عشر ألفاً ، وجرت بعد ذلك عدة محاكمات أخرى اتهم فيها الدعاة بالتحريض على « الحب » وقضى على مئات منهم بالسجن والنفي

وفي ظل النظام البلشفي استطاعت الطائفة أن تجوز العاصفة

ولم يخمد نشاط هذه الطائفة السرية المعجبة خلال القرن التاسع عشر ، بل لبثت دعوتها تنسرب إلى جميع الطبقات ؛ ونفذت الدعوة إلى الجيش بكثرة ، واكتشفت السلطات مئات من « المجبوين » في كرونستات وفي القوقاز ، وأمر القيصر أن تؤلف من هؤلاء الخصيان فرقة خاصة في الجيش . وفي سنة ١٨٤٢ قدم جند هذه الفرقة إلى القيادة بلاغاً قالوا فيه إنهم لا يمتدحون بالقيصر ، وإن القيصر الحقيقي هو بطرس الثالث الذي اعتقل في سوزدال وأعلنت وفاته كذباً ، فقبض على زعماء الفرقة ونفوا إلى سيبيريا

وتوالى محاكمات دعاة « السكوبتسي » خلال القرن التاسع عشر ، وأدجت في قانون العقوبات الروسي العقوبات الآتية : وهي أن يعاقب الشخص الذي يقوم بتشويه نفسه بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الذي يقوم بتشويه (بخصي) شخص آخر بستة أعوام في الأشغال الشاقة ؛ ويعاقب الدعاة بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الشخص الذي يقوم بإيذاء الدعاة في منزله عقاب مرتكب جريمة التشويه

ومن أشهر قضايا « المجبوين » في هذه الفترة ، محاكمة وقعت سنة ١٨٦٩ أمام محكمة جنائيات تيموف ، وفيها حكم بالنفي على مكسيم بلوتزين ، وهو تاجر غني كان يأوي في منزله تسع نساء مشوهات ؛ ذلك أن هذه الطائفة البربرية كانت تجتذب إليها النساء أيضاً ، وكان تشويه النساء يجري بقطع أجزاء من الثديين أو بانتراعهما ، وكذلك بتشويه أعضاء أخرى ؛ وكان يخرج من هؤلاء النسوة المشوهات بين آونة وأخرى « مريم » زعم أنها أم المسيح المزعوم . وكان بلوتزين من أكابر الدعاة ، وكان يعتبر من « أنبياء » الطائفة وله نفوذ عظيم في الولاية كلها . وفي سنة ١٨٧٦ ، كانت محاكمة رثانة أخرى أمام محكمة جنائيات مليتوبول ، وفيها ظهر أمام القضاة مائة وستة وثلاثون مجبواً حكم على معظمهم بالنفي . وكانت هذه المحاكمة الشهيرة خاتمة حركة سرية واسعة النطاق تعدت حدود روسيا إلى رومانيا ، وذهب ضحيتها مئات من الفلاحين والعمال . وكان الدعاة قد أخذوا إزاء اشتداد المطاردة في روسيا يتسربون إلى رومانيا وهنالك أسسوا لهم « محافل » سرية في ياسي وجلاتز ؛ وظهر في جلاتز بين الدعاة شخص يدعى ليسين وهو رومي من موسكو ،

تبذل كل الوسائل وكل صنوف الإغراء لاجتذاب الأنصار ،
وأنها لا تهجم عن ارتكاب صنوف الفساد والوعيد والعنف
لتحقيق غايتها ؛ وأنها تستغل في دعايتها بعض نصوص الإنجيل
والتوراة ، وتعتمد إلى خصي الأطفال وبذل المطايا للفقراء الذين
يرتضون التشويه ، واستخدام اليتامى ثم تشويههم بعد ذلك .
وتجرى عملية التشويه دون رسوم معينة بل تجري حيناً أمكن ؛
ويأخذ الداعى على الضحية دائماً عهداً وثيقاً بالكتمان . وظهر
أيضاً أن الدعاة يجتمعون تحت جنح الظلام في مصلى خفى يقام
فيه حاجز بين الرجال والنساء ، ويرتدى « المؤمنون » ثياباً بيضاء
ويحملون الشموع النيرة ، ويتلون صلوات من تأليف رسلهم
ودعاتهم ، ويتأيلون أثناء الصلاة في حركات عنيفة تبلغ أحياناً
درجة الهيام

وهكذا نرى أن هذه الطائفة السرية التي قامت منذ القرن
السابع عشر على مبادئ وثنية ، وأساطير روحية مخيفة ،
والتي تتوسل إلى تحقيق مثلها بأشنع الأساليب البربرية ، لا تزال
تقوم إلى اليوم في قلب أوروبا ، وفي قلب روسيا السوفيتية التي
ينمرها جو من الانكسار والافتقار لم تعرفه من قبل أمة من الأمم .
على أن قيام هذه الطائفة الممجيّة في قلب روسيا بالذات أمر يمكن
فهمه وتفسيره ، ففي قفاز روسيا النائية توجد مجتمعات من
الفلاحين يسحقها الجهل والفقر ، وتنحدر في سذاجتها إلى
مستوى يدنو من الممجيّة ، وفي هذه المجتمعات الساذجة المتأخرة
تفسو الخرافات والأساطير الدينية بصور مروعة تذكرنا بأساطير
الوثنية الأولى ؛ وفيها بالذات استطاع الدعاة أن يحشدوا ضحاياهم .
بيد أننا قد رأينا أن دعوة المجريين قد وصلت في العصر الأخير
إلى طبقة المثقفين والنبلاء . وأعجب من ذلك أن تقوم مثل هذه
الطائفة إلى اليوم بنشر عبادتها ورسومها الممجيّة . ولكن
روسيا بلد المعجائب ؛ ومن الصعب أن نتصورها قطعة من أوروبا
التمدنة ، وقد كانت وما تزال اليوم مسرحاً لأغرب الدعوات
والمذاهب والأساطير

محمد عبد الله عناه

« نينا في أوائل أكتوبر »

بسلام بالرغم مما لحق زعماءها الأغنياء من فقد ثرواتهم وأملأهم
الواسعة ؛ ورأى الدعاة أن يساروا النظام الجديد اجتناباً للطاردة
وقام منهم داعية يدعى ارماكوف ، فوجه إلى جميع « المؤمنين »
خطاباً مفتوحاً يتأشدهم فيه أن يجانبوا الفنى والكبرياء والشح ،
وأن يعودوا إلى الحياة الأخوية الساذجة التي دعا إليها سليفانوف ،
واقترح أن ينتظم أبناء الطائفة في جماعات روحية مشتركة ، ووضع
للطائفة نظاماً تعاونياً جديداً على أساس الشيوع ؛ وحمل ارماكوف
على الاختلاط الجنسي ، ووصفه بأنه أعظم عقبة تحول دون تحقيق
الصفوة الانسانية لمبادئ الحياة الرفيعة ؛ وتبعه داعية آخر يدعى
منشئين ، وأذاع في سنة ١٩٢٨ رسالة قال فيها إن مصائب الانسانية
كلها ، وجميع النزاعات والجرائم والحروب ، هي نتيجة الفريضة
الجنسية ؛ ثم يقول ما يأتى : « ما الذى يدفع إنساناً إلى الاختلاس
والجريمة ؟ هي الفريضة الجنسية . وفي كل مكان نرى عيادات
الأمراض السرية ، وفي كل يوم تقع آلاف من حوادث
الاجهاض وقتل المواليد ؛ ولقد كان العالم وما يزال غاصاً بالبناء
والبنايا ، وكل ذلك يرجع إلى فعل الأعضاء الجنسية » ويقترح
منشئين كملاخ لهذه المحنة الانسانية أن يمانى الرجال عملية
« الحب » في سن التضج ، ويقول إن ذلك لا يضر الانسانية
في شيء

وفي سنة ١٩٢٩ اكتشفت السلطات السوفيتية محافل سرية
للمجربيين في موسكو ولنتجراد ، وظهر من التحقيق أن الدعاة
يرتكبون جريمة التشويه ، ويبشرون في اجتماعاتهم السرية
باقتراب حكم القيصر بطرس الثالث ؛ فقبض على كثيرين من
الزعماء والدعاة ، وحوكموا أمام المحكمة الثورية ، وقضى على كثير
منهم بالسجن « لأنهم يذيعون خرافة دينية تقترن بها فائدة مادية ،
ولأنهم ارتكبوا جرائم الضرب والجرح » . ووقعت في سنة
١٩٣٠ محاكمة رثانة أخرى في لنتجراد حيث قبض على كثيرين
من أعضاء الطائفة وبينهم عدة من أكابر الأغنياء السابقين ،
وعدة من الماملات ؛ فقضت المحكمة على الزعماء بالسجن ،
ولكنها قضت ببراءة الضحايا من الممال والماملات . وظهر من
التحقيق أن الطائفة تعمل بنشاط في جميع أنحاء روسيا ، وأنها